المحاضرة الثامنة: العملية الإبداعية – مفهومها، مميزاتها، مراحلها

أولاً: مقدمة المحاضرة

تُعد العملية الإبداعية من أهم الظواهر الإنسانية التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات، إذ تمثل القدرة على إنتاج أفكار أو أعمال جديدة تتسم بالأصالة والقيمة. ويظهر الإبداع بوضوح في مجالات الفن، الأدب، العلم، والتكنولوجيا، حيث لا يقتصر على الموهبة الفطرية فقط، بل هو عملية نفسية وعقلية معقدة تمر بمراحل متعددة وتتأثر بعوامل داخلية وخارجية.

تهدف هذه المحاضرة إلى توضيح مفهوم العملية الإبداعية، وبيان خصائصها الأساسية، وشرح مراحلها النفسية والمعرفية، مع ربطها بالمجال الفني.

ثانياً: مفهوم العملية الإبداعية

العملية الإبداعية هي: سلسلة من العمليات العقلية والنفسية والانفعالية التي يمر بها الفرد من أجل إنتاج فكرة أو عمل جديد ومبتكر يتسم بالأصالة والجدوى والقيمة الجمالية أو الوظيفية.

تعريفات مختصرة:

تعريف نفسي: هي نشاط عقلي يتضمن التفكير التباعدي، والخيال، وحل المشكلات بطرق غير مألوفة.

تعريف فني: هي المسار الذي يمر به الفنان منذ الإحساس بالفكرة أو الانفعال، حتى إخراج العمل الفني بصيغته النهائية.

تعريف تربوي: هي قدرة مكتسبة يمكن تنميتها من خلال البيئة والتعليم والتدريب.

ثالثاً: أهمية العملية الإبداعية

١. تطوير الشخصية المتكاملة للفرد.

٢. تعزيز القدرة على حل المشكلات.

٣. إغناء الفنون والعلوم بأعمال جديدة.

٤. التعبير عن الذات والانفعالات الداخلية.

٥. دفع عجلة التطور الحضاري والثقافي.

رابعاً: مميزات العملية الإبداعية

تتميز العملية الإبداعية بعدد من الخصائص المهمة، منها:

١. الأصالة

إنتاج أفكار غير مألوفة أو جديدة مقارنة بالسائد.

٢. المرونة

القدرة على تغيير زاوية التفكير وتعدد الحلول.

٣. الطلاقة

إنتاج أكبر عدد ممكن من الأفكار خلال وقت معين.

٤. الحساسية للمشكلات

القدرة على ملاحظة النقص أو الخلل في الواقع.

٥. الذاتية

تعبر العملية الإبداعية عن خبرة الفرد الخاصة ورؤيته للعالم.

٦. اللاخطية

لا تسير العملية الإبداعية دائماً بشكل منتظم، فقد تتداخل مراحلها أو تتكرر.

خامساً: مراحل العملية الإبداعية

اتفق علماء النفس – وعلى رأســهم غراهام والاس (Wallas) – على أن العملية الإبداعية تمر بأربع مراحل أساسية:

١. مرحلة الإعداد (Preparation)

هي المرحلة الأولى، وفيها:

جمع المعلومات والخبرات.

دراسة الموضوع أو المشكلة.

البحث، القراءة، الملاحظة.

في الفن: يقوم الفنان بدراسة الفكرة، الخامات، الأسلوب، الموضوع.

مثال فني:

فنان يدرس موضوع (الماء) من حيث رمزيته، أشكاله، ألوانه، وتأثيراته النفسية.

٢. مرحلة الكمون أو الاحتضان (Incubation)

مرحلة لاشعورية نسبياً، وفيها:

يبتعد الفرد ظاهرياً عن المشكلة.

تستمر العمليات العقلية في اللاوعي.

تحدث إعادة تنظيم للأفكار.

في الفن:

قد يترك الفنان العمل لفترة، لكنه يظل يفكر فيه داخلياً دون وعي مباشر.

٣. مرحلة الإشراق أو الإلهام(Illumination)

تُعد أهم المراحل، وتتميز بـ:

ظهور الفكرة فجأة.

لحظة "آها" أو الاكتشاف.

شعور بالدهشة والوضوح.

في الفن:

تأتي الفكرة النهائية للتكوين، أو الحل التشكيلي المناسب للعمل.

٤. مرحلة التحقق أو التنفيذ (Verification)

وفيها:

اختبار الفكرة وتطبيقها عملياً.

تعديل وتنقيح العمل.

التأكد من صلاحية الفكرة وجودتها.

في الفن:

تنفيذ اللوحة أو المنحوتة، اختيار الألوان، التكوين، المعالجة النهائية.

سادساً: العوامل المؤثرة في العملية الإبداعية

١. العوامل النفسية: الدافعية، الانفعالات، الثقة بالنفس.

٢. العوامل المعرفية: الذكاء، الخيال، الخبرة.

٣. العوامل البيئية: الأسرة، المجتمع، التعليم

٤. العوامل الثقافية: القيم، التراث، الانفتاح الفكري.

٥. العوامل التكنولوجية: مثل استخدام الذكاء الاصطناعي في الفن المعاصر.

سابعاً: العملية الإبداعية في الفن

في المجال الفني، تتجسد العملية الإبداعية من خلال:

تحويل الانفعال إلى صورة بصرية.

المزج بين الخيال والواقع.

استخدام الخامات والتقنيات بطرق مبتكرة.

التعبير عن قضايا إنسانية واجتماعية معاصرة.

ثامناً: خاتمة المحاضرة

العملية الإبداعية ليست لحظة عشوائية أو موهبة فطرية فقط، بل هي مسار متكامل يبدأ بالإعداد وينتهي بالتنفيذ، ويتطلب وعياً نفسياً ومعرفياً وانفعالياً. إن فهم هذه العملية يساعد الطلبة والفنانين على تنمية قدراتهم الإبداعية، وتحويل الأفكار إلى أعمال فنية ذات قيمة جمالية وإنسانية.